محاضرة

التغيير الاجتماعي من منظور النظريات الاجتماعية

مقدمة:

ربما تكون أصعب القضايا المفاهيمية في دراسة التغيير الاجتماعي هو تعريف التغيير الاجتماعي، و هذه مشكلة كل العلوم الاجتماعية بوجه عام و لهذا يختلف الباحثون في تحديد هذا المفهوم، فتعددت التعاريف بتعدد المراحل لدراسة التغيير، و تحديد المفاهيم المتعلقة بميدان معين يعتبر أول الطريق نحو دراسة هذا الميدان. و من هنا سوف نحاول أن نعرف بايجاز كيف تطرقت أهم النظريات الكبرى في علم الاجتماع لمفهوم التغيير الاجتماعي.

1- التغيير الاجتماعي كعملية تطورية:

يطبق التطور التطوري بطرق مختلف في تفسير التغير الاجتماعي و خاصة بعد اكتشاف دارون لقانون تطور الكائنات في منتصف القرن التاسع عشر مما جعل كثيرا من علماء الاجتماع يتبعونه في نفس الطريق، و نحن نعلم أن النظيرة التطورية قد سيطرت على معظم الدراسات في التغير الاجتماعي مند أواخر القرن الثامن عشر و حتى أواخر الحرب العالمية الأولى.

و لهذا كانت وجهة النظر هذه تدور حول البحث عن قوانين تطورية ذات صيغة عالمية أو شمولية أو بمعنى أخر البحث عن القوانين التطورية التي تفسر النحو الاجتماعي.

و لقد اختلفت كثير من المخططات النظرية في علم الاجتماع و الأنتربولوجيا بعد الحرب العالمية الثانية و تركيز التحليل أكثر و أكثر على دوائر ضيقة و مثال ذلك البحث عن الطريقة التي يعمل بها مجتمع معين الأن و الابتعاد عن محالة وضع حركة المجتمع داخل سلسلة تطورية محددة، و هذا معناه ترك البحث يجري لاكتشاف الواقع دون أن نفرض على هذا الواقع قضايا أو اختراقات ثم التواصل إليها.

إلا أن النظريات التطورية لم تتوقف على نظرية داروت بل ظهر منظران أخران اتخذا من المدخل التطوري منطلقا نظريا لهما، و إن كان قد اختلفا قيما بينهما في العديد من الجوانب، فأوجبت كونتا نظر إلى المجتمع على أنه يمر بثلاثة مراحل مختلفة، حيث تثير هذه المراحل إلى تقدم أو تطور تدريجي يوضح التغيير الاجتماعي الذي مرت به المجتمعات الإنسانية و هذه المراحل هي:

أ- **المرحلة اللاهوية:** و هي المرحلة التي تتسيطر عليها الثقافة الخارقة للطبيعة – نظريات و آراء لاهوية.
ب-**المرحلة الميتافيزيقية و الشرعية** و هي المرحلة التي يفسر الفكر الإنساني كل الظواهر من خلال أفكار ميتافزيقية مجردة و تقع ما بين المرحلة الأولى و الثانية.
ت-**المرحلة العلمية:** و التي تحل فيها الوضعية محل التأمل الديني و الصناعة الحربية محل الإنتاج الاقتصادي السلمي كأهدان رئيسية تسيطر على التنظيم الاجتماعي.

و يرى كونتي أن هذه المراحل الثلاث من التغيرات تتبع كل منها الأخرى كما أن المرحلة اللاحقة تصحح أخطاء السابقة إلا أن الأخيرة نهائية و حتمية بمعنى أنها تمثل النقطة النهائية للتطور.

و لقد حاول كل من **"مورجان " و " برافيولت " و ' تايلور " و " سبنسر "** وضع مركب رئيسي للحقائق المعروفة عن السلوك الاجتماعي وضعوه في اربعة فرضيات أساسية، هذه الافتراضيات من غير شك تمثل الخطوة الأولى لحل المشكلة الصعبة لقياس التغير الاجتماعي:

أ- أن أهم ما يغير بداية الوجود الإنساني (المرحلة المبكرة في العصر الحجري) عن أفراد المجتمع الحديث هي أنماط السلوك الاجتماعي و الثقافي المغلقة بين المستوى المنخفض و التكنولوجيا، و هكذا نستطيع إعادة و تنظيم المراحل فيما بينها عن طريق ملاحظة المجتمعات المعاصرة و ترتيبها وفقا لمستواها التكنولوجي.
ب- يمكن النظر إلى "البقاء الثقافي" مثل شعائر الزواج، المصافحة، أو الطقوس الدينية كمرادف للبقايا الاجتماعية.
ت-نستطيع ملاحظة واكتشاف هذه الأنماط الاجتماعية لأنها أسهمت بصورة كبيرة فيما مضى في بقاء المجتمع على الأنماط التي نبذت في الماضي.
ث-يحدد هذا المقياس كما في التطور البيولوجي السلسلة التي يمكن ايجادها خلال كل الأفاق الاجتماعية تتحول في نهاية الأمر.

2- <u>التغير الاجتماعي كعملية دائرية:</u>

هناك اعتقاد بأن الحياة أو جميع الكائنات الحية تسير في حركة منتظمة و هناك أمثلة كثيرة للدلالة على ذلك مثل: انتظام خفقات القلب، عملية الشهيق و الزفير، توالي فصول العام، عملية نمو الكائن العصري و اندثاره و يبدو أيضا أن النبضات التي تتخلل العالم تجد ما يتطابق معها

من الظواهر الاجتماعية مثل تكرار الجريمة، و عدد الزيجات، و المواليد و الوفيات و النمو السكاني و اتجاهات الموضة، و الاتجاهات السياسية.

إن أهم ما يميز هذه التوترات هو أنها محددة ببداية و نهاية فالدائرة المغلقة للميلاد و الموت تتردد خلال حياة المخلوقات، و هذا الإيقاع أو الثواتر له دلالة هامة بالنسبة للمخلوقات الانسانية الذين يعتبرون أنفسهم مظهرا له، و قد كان لهذا الايقع جاذبية خاصة في تفسير التغير الاجتماعي، ففي جميع جميع العصور وجد الإنسان أنه يوجد تطابق بين دورة حياة الجماعة أو الدولة او الإمبراطورية أو الحضارة.

3- التغيير الاجتماعي كحتمية اقتصادية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العوامل الاقتصادية هي وحدها المسؤولة عن التغيرات التي تحدث في المجتمعات حيث قسمها ماركس إلى خمس أنماط أساسية لعلاقات الانتاج و هي:

- الكرميونة البدائية: و هي جماعات الناس في المرحلة الأولى لتطورها، و وسائل الانتاج فيها قاياة و جماعية أو لاتوجد طبقات اجتماعية و لا تقسيم للعمل.
- العبودية (الرق): يظهر فيها أول تقسيم للعمل مما يؤدي إلى زيادة القوى الانتاجية و في هذه المرحلة ظهرت الملكية الفردية و معها اللامساواة الاقتصادية و تقسيم العمل الثاني هو الفصل بين الحرف و الزراعة الذي أسرع في تنظيم الكرميونة البدائية بزيادة الانتاج و الدعوة إلى العبودية.
- الاقطاع (رق الأرض): أدى التقدم المستمر في وسائل الانتاج مثل تحسين استخدام الحديد واستعمال المحراث الحديدي و الطاحونة المائية إلى تحطيم المجتمع القائم على العبودية و أصبح نظام عبودية الأرض ضروري للإنتاج.
- الرأسمالية: حلل البرجوازيون محل النبلاء الاقطاعيين بسبب التور الهائل الذي حدث في التجارة و استأثرث الطبقة الجديدة بالثروات و احتكرت وسائل الانتاج نتيجة لظهور الصناعة، و ظهور التخصص الدقيق واحتدام النضال الطبقي، و كان التناقض الأساسي في الرأسمالية يقع بين الطبقة العاملة و أصحاب رأس المال.

4- الاشتراكية و الشيوعية:

يجعل هذا النظام الملكية الجماعية لوسائل الانتاج تحي سيطرة طبقة البروليتاريا و تعتبر الاشتراكية المرحلة الأولى لهذا التحول الذي يتحقق في الشيوعية التي هي المرحلة الاخيرة حيث تكون خيرات الانتاج موزعة تبعا للحاجات.

و يظهر هذا التعاقب الجدلي كيفية "تغير" بناء المجتمعات باستمرار ففي كل مجتمع يوجد القديم الذي ينهار و الجدير الذي يزدهر، و هناك تفاعل حتمي بين أساليب الانتاج و الأبنية الاجتماعية، و إذن تفسر المادية التاريخية حركة المجتمع و تقدمه تبعا لتقدم و حركة القوى المنتجة و العلاقات التي تقوم عليها، و مادام الانتاج دائم التحول و التطور فإنه لا يقف طويلا في نفس المستوى و أنه الوحيد القادر على تفسير كيف يمكن لنظام اجتماعي أن يحل محل نظام أخر، و لماذا تتغير الأفكار الاجتماعية و لماذا تقضي الضرورة في بعض الأحيان باعادة النظر في النظام الاجتماعي و السياسي كله.

خاتمة:

و عموما من خلال استعراضنا لتعريف التغير الاجتماعي من منظور النظريات الاجتماعية، أحب أن أشير إلى أن التغير الاجتماعي ليس عملية مؤقتة لها بداية و نهاية بل أن عملية مستمرة.